

التراث الجغرافي اللغوي عند العرب

لكنوز من نضار

كان الشاعر العربي القديم ابن بيئته البار، أقام فيها فأحبها وأذابها في وجدانه . وانتقل عنها فلم ينسها ، ودأب على ذكرها والوقوف والاستيقاف عليها كلما مرّ بها . واتخذ منها ملهما لأفكاره ، ومنبعاً لصوره ، وموضوعاً لوصفه . وتغنى بها - على قسوتها عليه أحياناً - وردد أسماء البقاع التي شاهدت فترات من حياته ، متتبعاً مستقصياً ، كما فعل الحارث بن حلزة ، حين قال في معلقته :

أَذَنْتُنَا	بَبَيْنِهَا	أَسْمَاءُ	رُبَّ ثَاوٍ يُمَلِّدُ	مِنْهُ	الثَّوَاءُ			
بَعْدَ عَهْدٍ	لَنَا	بِبَرَقَةٍ	كَشْمَا	ءَ فَادُنِي	دِيَارَهَا	الْخُلُصَاءُ		
فَالْحَيَاةُ	فَالصَّمَّاحُ	فَاعْلَى	ذِي	فَتَاقٍ	فَعَاذِبُ	فَالْوَفَاءُ		
فَرِيَاضِ	الْقَطَا	فَأُودِيَةِ	الشُّرِّ	بِ	فَالشَّعْبَتَانِ	فَالْأَبْلَاءُ		
لَا أَرَى	مِنْ	عَهْدَتِ	فِيهَا	فَأَبْكِي	الْيَوْمَ	دَلَهَا	وَمَا يَرُدُّ	الْبُكَاءُ !

وكان ذلك الشاعر مخلصاً لبيئته ، يحب أن يعود إلى صورتها الكاملة بجميع أبعادها وأن ينقلها إلى من يتغنى لهم ومعهم بتلك الأبعاد ، فلم يرضن عليهم بشيء ، يزيد صورتها تحديداً وكالاً . فعمد زهير إلى رسم الطريق الذي سلكته محبوبته في رحلتها في وادي

السوبان ، والجانب الذي مالت إليه منه ، إذ قال في معلقته :

ظهرن من السوبان ثم جزعنه على كل قَيْنِي قَشِيب ومفأم
ووركن في السوبان يعلون متنه عليهن دلُّ الناعم المتنعم
وعمد امرؤ القيس إلى الموضع الذي يريد التحدث عنه ، فشفى كل نفس من تحديده

حين قال :

قفا نيك من ذكرى حبيب ومزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة ، لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال
وعُرف امرؤ القيس خاصة بميله الى تحديد مواقع البقاع التي يتحدث عنها ، وقدرته على ذلك ، حتى رويت في ذلك القصص التي - صحت أو لم تصح - لا تفقد دلالتها على اشتهاار ذلك الجانب عند الشاعر .

حدث إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنه أقبل قوم من اليمن يريدون النبي ﷺ ففضلوا الطريق . ومكثوا ثلاثة أيام لا يجدون الماء . وجعل الرجل منهم يستروي بفيء السمُر والطَّلح حتى أيسوا من الحياة ، إذ أقبل راكب على بعيره ، فأنشد بعضهم :

ولما رأت أن الشريعة همها وأن البياض من فرائصها دامي
تيممت العين التي عند ضارج يفيء عليها الظل ، عر مضها طامي

فقال لهم الراكب - وقد علم ما هم عليه من الجهد - : « من يقول هذا ؟ » قالوا : « امرؤ القيس » . قال : « والله ، ما كذب ، هذا ضارج عندكم » . وأشار إليه . فاذا ماء عذب وعليه العرمض - الطحلب الذي على الماء - والظل يفيء عليه فشربوا منه ريهم ، وحملوا منه ما كفاهم (١) .

واتخذ كَيْل (٢) Iyall من هذه الظاهرة دليلا على صحة الشعر الجاهلي وصحة نسبته إلى قائله .

(١) ياقوت : معجم البلدان ٤٦٠/٣ .

(٢) مقدمة طهته لديوان عبيد بن الأبرص ١٣ .

وظهر اللغويون الذين عنوا بالشعر رواية ودراية ، وحاولوا تفسير جميع جوانب ذلك الشعر ليتضح أمام القراء الجدد الذين ما كانوا يعرفون مناسباته ، ولا كثيراً من ألفاظه وإشاراتِه ، لطول العهد بينهم وبين قائله ، وللبعد بينهم وبين اللغة التي نظم بها .
فكان من الجوانب التي عنوا بها البقاع المذكورة في الشعر ، فعاملوا أسماءها معاملة غير لغوية ، وبالألفاظ ، وبالطريقة التي عاملوه بها ، وفي ذلك الوقت المبكر الذي عنى اللغويون فيه بألفاظ الشعر .

وكان ذلك أمراً لغوياً ، يقوم به لغويون ، بهدف لغوي ، ومنهج لغوي . ولا يحس القارئون به أنهم يعالجون شيئاً بعيداً عن اللغة .

ولكن ذلك الميدان لم يبق طويلاً خالياً للغويين وحدهم ، بل ما أسرع ما وجدوا معهم جماعات تعالج تلك الأماكن ، وغيرها من البقاع التي لم يسمع عنها اللغويون ، معالجة مختلفة اختلافاً كبيراً في الهدف والمنهج . فما كانوا يعنون بدراسة اللغة العربية ، بل كان بعضهم يعنى بدراسة الأخبار والأحداث العربية ويسمون أنفسهم الأخباريين والمؤرخين . وكان بعضهم الآخر يدرسون البقاع العربية وغيرها من البقاع من أجل التعريف بها ، ويسمون أنفسهم الجغرافيين ، وأصحاب المسالك والممالك ، أو تقويم البلدان .

وقد تنبه القدماء أنفسهم إلى المغايرة بين اللغويين والجماعة الأخيرة خاصة ، لأن المؤرخين عنوا بالمواضع كقدمات لدراساتهم التاريخية . فلم تسلط الأضواء إلا على اللغويين والجغرافيين ، الذين اعتمد عليهم ياقوت في معجم بلدانه العظيم ، ونبه في مقدمته إلى الفروق بين الفريقين حين قال ^(١) : « صنف المتقدمون في أسماء الأماكن كتباً وبهم اقتدينا وهي صنفان : منها ما قصد بتصنيفه ذكر المدن المعمورة والبلدان المسكونة المشهورة ، ومنها ما قصد به ذكر البوادي والقفار ، واقتصر على منازل العرب الواردة في أخبارهم والأشعار . فأما من قصد ذكر العمران لجماعة وافرة ، منهم من القدماء والفلاسفة والحكام أفلاطن وفيثاغورس وبطليموس وغيرهم كثير من هذه الطبقة ، وسموا كتبهم في ذلك

(١) معجم البلدان ١/٦ .

جغرافيا ... وقد وقفت لهم منها على تصانيف عدة جهلت أكثر الأماكن التي ذكرت فيها ، وأبهم علينا أمرها ، وُعدمت لتطاول الزمان فلا تعرف ، وطبقة أخرى إسلاميون سلكوا قريباً من طريقة أولئك من ذكر البلاد والممالك ، وعيّنوا مسافة الطرق والمسالك ، وهم ابن خرداذبه وأحمد بن واضح والجيّهاني وابن الفقيه ... وأما الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية فطبقة أهل الأدب ، وهم أبو سعيد الأصمعي ، وأبو عبيد السكوني ، والحسن بن أحمد الهمداني ... وأبو الأشعث الكندي ... وأبو سعيد السيرافي . وأبو محمد الأسود الغندجاني ... » .

وحديثي في هذا المقال قاصر على الذين سماهم ياقوت طبقة أهل الأدب ، أو الذين عالجوا أسماء الأماكن معالجة لغوية أدبية .

وأقدم من أعرف من هذه الطائفة خلف الأحمر ، المتوفى في حدود سنة ١٨٠ هـ . فقد قيل إنه ألف كتاباً بعنوان « جبال العرب وما قيل فيها من الشعر ^(١) » . وينافسه في القدم أبو الوزير عمر بن مطرف ، المتوفى في عهد الرشيد ١٧٠ - ١٩٣ ^(٢) . فقد نسب إليه كتاب « منازل العرب وحدودها ، وأين كانت محلة كل قوم ، وإلى أين انتقل منها ^(٣) » . والكتابان مفقودان ، ولم أعثرفيما رجعت إليه من كتب على نصوص يصرح أنها مقتبسة عنها .

وينسب إلى أبي المنذر هشام بن محمد الكلبي ، المتوفى في سنة ٢٠٤ ، عدة كتب من هذا النوع . ذكر ابن النديم ^(٤) منها البلدان الكبير ، والبلدان الصغير ، وقسمة الأرضين ، والأنهار ، ومنازل اليمن ، وأسواق العرب ، والأقاليم ، والحيرة وتسمية البيع والديارات ونسب العباديين ، وتسمية ما في شعر امرئ القيس من أسماء الرجال والنساء وأنسابهم وأسماء الأرضين والجبال والمياه .

(١) ابن النديم : الفهرست ٥٠ . القفطي : إنباه الرواة ١/٣٥٠ . السيوطي : بنية الوعاة ٢٤٢ .

(٢) وقيل إنه مات في عهد المهدي ١٥٨ - ١٦٩ هـ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ١٢٧ . ياقوت : معجم الأدباء ١٦/٧٢ .

(٤) الفهرست ٩٧ . وعنه ياقوت : معجم الأدباء ١٩/٢٩١ .

وألف أبو عبيدة ، المتوفى في ٢٠٨ هـ ، كتاب الحرات ^(١) ولم يورد البكري ولا ياقوت شيئاً منه في حديثها عن الحرات .

وألف أبو زيد الأنصاري ، المتوفى في ٢١٥ هـ ، كتاب المياه ^(٢) . ولم أجد نصواً يصرح أنها مقتبسة منه . وغير بعيد أن يكون النص التالي مأخوذاً منه . قال ياقوت ^(٣) : « قال أبو زيد : تخرج من الحمى - حمى ضرية - فتسير ثلاثة ليال مستقبلاً مهب الجنوب من خارج الحمى ، ثم ترد مياه الضباب ، فن مياههم الأرطاة » .

وألف الأصمعي ، المتوفى في ٢١٦ ، كتب مياه العرب ، وجزيرة العرب ، والدارات ^(٤) ولم يصرح ياقوت باسم الأول منها في مقتبساته ، غير أنه أكثر من النقل من الثاني . وتدل هذه المقتبسات على أن الأصمعي رتب الكتاب وفقاً للأقاليم والقبائل ، فكان يذكر بقاع إقليم إقليم ، أو قبيلة قبيلة ، مثل مياه نجد ، ونواحي الطائف ، ومنازل قيس بنجد ، وديار الحجاز ، وغيرها . وتدل أيضاً على أنه كان يحدد الأماكن بما جاورها ، أو بأقليمها ومن يسكنها ، وكان في بعضها يصل الى تحديد جد دقيق . وكان عماده في أقواله على الشعر .

نمثل لذلك بقوله ^(٥) : « لبني نصر بن معاوية بجانب ركبة بقعاء بين الحجاز وبين ركبة ، وهي من أرض ركبة » ؛ ولعنابته بالشعر بقول ياقوت ^(٦) : « أنشد الأصمعي في كتاب جزيرة العرب لرجل من طيء ، يقال له الخليل بن قردة - وكان له ابن واسمه زافر ، وكان قدم بالشم في مدينة دمشق - فقال :

ولا آب ركب من دمشق وأهله ولا حص إذ لم يأت في الركب زافر

ولا من شبيث والأحص ومنتهى المطايا بقنسرين أو بخناصر »

ويعد كتاب الدارات للأصمعي أقدم كتاب وصل إلينا من هذه المجموعة . وقد

(١) ابن النديم : الفهرست ٥٤ . (٢) ابن النديم : الفهرست ٥٥ .

(٣) معجم البلدان ٢٠٩/١ . (٤) » » » ٥٥ .

(٥) » » ٢٠١/١ . (٦) معجم البلدان ١٥٢/١ .

نشره الآباء اليسوعيون في كتاب « البلغة في أصول اللغة » . واستهل الأصمعي كتابه الصغير باحصاء الدارات في بلاد العرب ، فكانت عنده ١٦ دارة . ثم عرّف الدارة ، وأورد صيغ جموعها . ثم أخذ يسرد أسماءها دون ترتيب ويتحدث عن كل منها . ودأب في حديثه هذا على أن يورد الاسم ثم بيتاً أو بيتين من الشعر شاهدين عليه . ولم يبذل أية محاولة لتحديد مواقعها . أما شواهد الشعرية فنسب بعضها إلى قائله ، وأهم ذلك في غالبها . قال في مفتتحه : « دارات العرب المعروفة في بلدانهم وأشعارهم ست عشرة دارة . والدارة : ما اتسع من الأرض وأحاطت به الجبال غلظ أو سهل . يقال : دار ، ودارة وأدور ، ودارات . فن ذلك دارة وشجى ، وأنشد :

ولست بناسٍ موقفاً إن وقفته بدارة وشجى ما عمّرتُ سليما

ودارة مجلجُل ، قال امرؤ القيس :

ألا ربَّ يومٍ لك منهن صالحٍ ولا سيما يومٍ بدارة جلجلٍ

ودارة رفر ، وأنشد :

فقلت : عدي . قالت : إذا الليل جننا فوعدنا أقوازُ دارة رفر »

وألف محمد بن خالد البرقي - من أصحاب محمد بن علي الجواد المتوفى في ٢٢٠ هـ -

كتاب البلدان ^(١) . ولم يشر إليه ياقوت ولا البكري .

وألف أبو عثمان سعدان بن المبارك (المتوفى في ٢٢٠ هـ) ، كتاب الأرضين والمياه والجبال والبحار ^(٢) . ورأى ابن النديم قطعة منه بخط ابن الكوفي ^(٣) . ولكن ياقوتاً والبكري لم يذكرها .

وألف الحسن بن محبوب السراد (المتوفى في ٢٢٤ هـ) كتابي الأرضين ، والبلدان ^(٤) .

ولم يذكرها ياقوت والبكري .

(١) ابن النديم : الفهرست ٢٢١ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ٧١ . ابن الانباري : نزهة الألباء ١٠٣ . السيوطي : البغية ٢٥٤ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ٧١ . (٤) ابن النديم : الفهرست ٢٢١ .

ونسب ابن النديم^(١) إلى أبي الحسن علي بن محمد المدائني، المؤرخ المشهور (المتوفى في ٢٢٥ هـ) كتاباً عن حمى المدينة وجبالها وأوديتها. ولكن كل ما نقله ياقوت عن المدائني مواد تاريخية، ما عدا ثلاثة نصوص، تحدث في أحدها عن حدة تهامة^(٢)، وفي ثانيها عن حدة العراق^(٣)، وفي ثالثها عن وادي قناة^(٤). وربما أخذ هذه النصوص الثلاثة من بعض كتبه التاريخية الكثيرة، وربما أخذ النص الثالث وحده من الكتاب المذكور. وألف الجاحظ (المتوفى في ٢٥٥ هـ) كتاباً اختلفت المراجع في عنوانه. فسماه ابن حوقل^(٥) وياقوت^(٦) «البلدان»، والثعالبي^(٧) «خصائص البلدان»، والمسعودي^(٨) «الأمصار وعجائب البلدان» وحاجي خليفة والثعالبي في موضع آخر من كتابه: «الأمصار». وتحمل قطعة منه، محفوظة بالمتحف البريطاني تحت رقم ١١٢٩، عنوان «الأوطان والبلدان»^(٩).

وذكر المسعودي^(١٠) أن الجاحظ ادعى في هذا الكتاب أن منبع نهري مهران بالسند والنيل بمصر واحد، واستدل على ذلك باتفاق زيادتهما، وكون التماسيح فيها، وأن طرق الزراعة في البلدين واحدة، ثم رد عليه.

ونقل ياقوت^(١١) منه نصاً يدل على أن الجاحظ تناول فيه بعض الآثار الجميلة، ذات الشهرة الكبيرة، بالوصف. قال ياقوت: «حكى الجاحظ في كتاب البلدان قال: قال بعض السلف: ما يجوز أن يكون أحد أشد شوقاً إلى الجنة من أهل دمشق، لما يرونها من

(١) الفهرست ١٠٣. (٢) ٩٠٢/١. (٣) ٦٣٠/٣.

(٤) ياقوت: معجم البلدان ١٨٢/٤. السهري: وفاة الوفا ٢١٥/٢.

(٥) صورة الأرض ٣٧٢. (٦) معجم البلدان ٥٩٣/٢.

(٧) ثمار القلوب في الضفاف والنسب ٤٣٨.

(٨) التنبيه والأشرف ٥٥. ومروج الذهب ٩٩/١.

(٩) كشف الظنون ١٣٩٨/٢. ثمار القلوب ٤١١.

(١٠) Rieu, Supplément, No 1129.

(١١) التنبيه ٥٥، ومروج الذهب ٩٩/١ (١٢) معجم البلدان ٥٩٣/٢.

حسن مسجدهم . وهو مبني على الأعمدة الرخام طبقتين ، طبقة التحتانية أعمدة كبار ، والتي فوقها صغار ، في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفضيفساء الذهب والأخضر والأصفر . وفي قلبه القبة المعروفة بقبة النسر ، ليس في دمشق شيء أعلى ولا أسمى منظرًا منها . ولها ثلاث منائر : إحداها - وهي الكبرى - كانت ديدباناً للروم ، وأقرت على ما كانت عليه ، وصيرت منارة .

وتبين النصوص المنسوبة إلى الجاحظ - وإن لم يصرح باسم الكتاب المأخوذة منه - أنه كان يرصد الظواهر الطبيعية والبشرية ، ويعدها من فضائل البلدان التي تقع بها أو من عيوبها ، أي من خصائصها . فقد نقل عنه ياقوت ^(١) ما يتعلق بالمد والجزر وتغير الطقس في البصرة ، وكراهية المطر في مصر ، والمقدسي ^(٢) ما يتعلق بخصائص بغداد والكوفة والبصرة والفسطاط وغيرها . وتبين أيضاً أنه لم يقتصر على الأقاليم العربية ، بل تناول غيرها أيضاً مثل الري ونيسابور ومرو وبلخ وسمرقند وغيرها ^(٣) .

وأثنى كثيرون على كتاب الجاحظ ، قال ابن حوقل ^(٤) : « كتاب نفيس » . واتهم المقدسي ^(٥) ابن الفقيه بسرقة كتاب الجاحظ ، على الرغم من سوء رأيه فيه إذ قال ^(٦) : « وأما الجاحظ وابن خرداذبه ، فإن كتابيهما مختصران جداً لا يحصل منها كثير فائدة » . كذلك عابه البيروني ووسم صاحبه بالبساطة والسطحية .

وذكر ياقوت في معجم الأدباء أن شمر بن حمدويه الهروي (المتوفى ٢٥٥ هـ) ألف كتاب الجبال والأودية ^(٧) ، ولكنه لم يذكر في مقدمة معجم البلدان . وبالرغم من ذلك عزا إليه ، هو وأبو عبيد البكري ، كثيراً من الأقوال . وكلها - على وجه التقريب - تفسيرات لغوية واشتقاقية . فلا أدري يقيناً : هل أخذها من هذا الكتاب أو غيره ؟

(١) معجم البلدان ١/٦٤٧ ، ٦٥١ ، ٤/٥٥٢ . (٢) أحسن التقاسيم ٣٣ .

(٣) نفس الموضع . (٤) صورة الأرض ٣٧٢ .

(٥) أحسن التقاسيم ٢٤١ . (٦) أحسن التقاسيم ٤ .

(٧) ٢٧٥/١١ .

وربما كان الاستثناء الوحيد من الحكم السابق ما نقله ياقوت عنه ^(١) : « عُنَاب : جبل في طريق مكة . قال المرار :

جعلن يمينهن رعان حبس . وأعرض عن شمائلها العُنَاب »

وبالرغم من ذلك لا أستطيع أن أؤكد أنه من كتابه المذكور .

ونسب ياقوت في معجم الأدباء إلى أبي عبد الله أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل ، نديم المتوكل ، المتوفى نحو ٢٥٥ هـ ، كتاب أسماء الجبال والمياه والأودية ^(٢) . ولا ذكر له في معجم البلدان ولا معجم البكري .

وفي عهد المتوكل أيضاً ، كان يعيش محمد بن إدريس بن أبي حفصة ، الذي وقف ياقوت ^(٣) على كتاب له سماه « مناهل العرب » ، كما تدل المقتبسات على أنه عاد إلى كتابه الآخر اليمامة . ولا يفرق ياقوت بين ما يقتبسه من كل من الكتابين ، ولكننا قد نطمئن إلى أن كل ما يتصل باليمامة من الكتاب الثاني ، وما عداه يحتمل أن يكون من الكتاب الأول . فإذا كان الأمر كذلك ، نستطيع أن نقول إن المؤلف وصف في كتابه الأول المواقع على الطريق بين البصرة ومكة ^(٤) ، وحجر والبصرة ^(٥) ، وربما الطريق بين اليمامة ومكة ^(٦) ، ووصف كثيراً من الأماكن بالبحرين ، ونجد ، وهجر ^(٧) .

قال ياقوت ^(٨) : « قال الخنصي : إذا خرجت من البصرة تريد مكة ، فتأخذ بطن

فلج ، فأول ماء ترد الحفير . قال بعضهم :

ولقد ذهبتُ مراغماً أرجو السلامة بالحفير

فرجعت منه سالماً ومع السلامة كل خير »

وتحدث في كتاب اليمامة عن القرى ، والمياه ، والجبال ، والوديان ، والرياح ، والأماكن . بل عدّه ياقوت أحسن من كتب عن اليمامة ، فجعله مصدره الرئيس فيها .

(١) ٧٣٢/٣ . (٢) ٢٠٤/٢ . (٣) معجم البلدان ٧/١ .

(٤) ٢٩٧/٢ ، ٣٤٧ . (٥) ٨٥٦ . (٦) ٣٥٠/٢ .

(٧) ١/٩ ، ٩٤١/١ ، ٣٥٤/٢ ، ٨٨٦/٣ ، ٨٩٤/٤ . (٨) ٢٩٧/٢ .

ولعله نقل الكتاب برمته في معجمه . قال ياقوت (١) : « قال محمد بن إدريس بن أبي حفصة : أثيفية : قرية وأكيات ، وإنما شبهت بأثافي القدر ، لأنها ثلاث أكيات . وبها كان جرير . وبها له مال . وبها منزل عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير ... » .

وقال ياقوت في حديثه عن الأجرعين (٢) : « علم لموضع باليمامة ، عن محمد بن إدريس ابن أبي حفصة ، هكذا حكاه مبتدئاً به » . ولعل هذا القول يعني أن الحفصي بدأ كتابه بالأجرعين . وربما كان لنا الحق أن نستنبط أنه رتب مواضعه على الألقباء ، ولكنه في الحرف الأول وحده ، لأنه قدم الأجرعين على أثيفية . ولكن بعض أقوال ياقوت الأخرى تجعلنا نعتقد أن الكتاب لم يكن مرتباً على الألقباء . قال (٣) : « قال الحفصي : ذو سدير قرية لبني العنبر » . وقال في موضع آخر من كتابه : « بظاهر السُّخال واد يقال له : « ذو سدير » . وربما لم يكن ذلك النص صريح الدلالة على عدم الترتيب ، لأنه من الجائز أن يكون أورد « ذو سدير » الثانية عرضاً ، في أثناء حديثه عن السُّخال . ولكن ياقوتاً قال أيضاً (٤) : « ذكر الحفصي مسافة ما بين اليمامة والدهناء ثم قال : وأول جبل بالدهناء يقال له الوحيد ، وهو ماء من مياه بني عقيل يقارب بلاد بني الحارث بن كعب » ، مما قد نستنبط منه أنه راعى التسلسل الجغرافي .

وكان الحفصي يذكر إقليم المكان الذي يتحدث عنه أو يحدد أبعاده عما جاوره من بقاع مشهورة ، أو يصرح بالقبائل التي تسكنه ، أو أكثر من أمر من هذه الأمور . ولكنه في كتاب اليمامة اقتصر في كثير من البقاع على أنها من اليمامة ، ولم يحاول لها تحديداً . ومن الطبيعي أن يضطر الزبير بن بكار المتوفى في ٢٥٦ هـ ، في كتبه التاريخية المتعددة إلى التعرض للأماكن الواردة في تضايف أخباره . ولكن ابن الفقيه الهمداني قال (٥) : « وفي العقيق وقصوره وأوديته وحراره أخبار كثيرة ، وللزبير بن بكار فيه كتاب

(١) ١٢١/١ . (٢) ١٣٤/١ . (٣) ٦٩/٣ .

(٤) ٩٠٨/٤ . وانظر ٨٧٢/٣ . (٥) البلدان ٢٦ .

مفرد» . وأكّد ذلك ياقوت في معجم البلدان ^(١) والسمهودي في وفاء الوفا ^(٢) .
وتدل النصوص التي نقلها ياقوت ، والبكري ، والسمهودي ، من هذا الكتاب ، أن
المؤلف تناول فيه أودية العقيق ، وغدرانه ، وسيوله ، وما إليها ؛ وأكثر فيه من الأخبار
والأشعار . قال ياقوت ^(٣) : « ذكر الزبير في كتاب العقيق بالمدينة : هو مَرخ وذو مرخ
وأشداً لأبي وجزة يقول :

واحتلّت الجوّ فالأجراع من مرخ فالها من ملاحاة ولا طلب »

وراعى في الأماكن التي ذكرها تسلسلها الجغرافي . قال السمهودي ^(٤) : « قال
[الزبير] : وأعلى عُدر مسيلات العقيق التي في درج الوادي مما يلي الحرة موكلان ، من
أعلى ذي العش . ثم غدِير سليم . ثم ذو التحاميم . ثم الأعوج . ثم غدِير الجبال . ثم يماحم .
ثم غدِير الذباب . ثم غدِير الحمير ... » . ولكننا يجب ألا نستنتج من هذه النصوص
وأمثالها عند السمهودي أن الزبير كان يدون قوائم مجردة بهذه البقاع ، فقد أثبت الدكتور
صالح أحمد العلي ^(٥) أن السمهودي كان يلخص نقوله ، بحذف ما فيها من أشعار .

ونسب ابن النديم ^(٦) إلى أحمد بن محمد البرقي ، المتوفى في ٢٧٤ هـ ، كتاب البلدان ،
وصرّح أنه كان أكبر من كتاب أبيه السالف الذكر . وبالرغم أن ياقوتاً ترجم له في معجمي
الأدباء ^(٧) والبلدان ^(٨) لم يذكر هذا الكتاب ، ولا رجع إليه هو أو البكري .

وألف أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري ، المتوفى في ٢٧٥ هـ ، كتاب المناهل
والقرى ^(٩) ، الذي صرح ابن النديم أنه رآه بخطه ^(١٠) . والنقول التي يعزوها ياقوت إلى
السكري كثيرة . ولكننا لا نستطيع أن ننسب شيئاً منها إلى هذا الكتاب ، على وجه
اليقين . بل صرح ياقوت نفسه بأسماء كتب أخرى للسكري ، نقل منها ، مثل روايته

(١) ٨٥٠/٢ ، ٤٩٢/٤ ، ٦٧٣ ، ٧٨٠ . (٢) ٢٠٨/٢ ، ٢١٠ ، ٢١٩ .

(٣) ٤٩٢/٤ . (٤) ٢١١/٢ . (٥) المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز ٢٠ .

(٦) ٢٢١ . (٧) ١٢٢/٤ . (٨) ٥٧٥/١ .

(٩) القنطي : انباه الرواة ١/٢٩٢ . السيوطي : البنية ٢١٩ . (١٠) ٧٨ .

شعر جرير^(١). أما كتاب المناهل والقرى فلم يذكره لا في الكتاب ولا في المقدمة .
وأكثر ما نقله ياقوت أسماء أما كن أوردتها في صدد شرحه للشعر ، وأكثرها من بقاع
شبه الجزيرة العربية ، ولكن قليلا منها في مصر^(٢) .

وألف عرام بن الأصمغ السُّلَمي المتوفى نحو ٢٧٥ هـ كتاب « أسماء جبال تهامة ،
وسكانها ، وما فيها من القرى ، وما ينبت عليها من الأشجار ، وما فيها من المياه^(٣) » .
ووصلت إلينا نسخة منه ، من رواية أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي ، عن أبي محمد
عبيد الله بن عبد الرحمن السكرى ، عن ابن أبي سعد الوراق ، عن أبي الأشعث عبدالرحمن
ابن محمد ، عن المؤلف . وقام بتحقيقها وطبعها الأستاذ عبد السلام محمد هارون . وعليها
أعتمد في الوصف . وكان بين يدي أبي عبيد البكري نسخة أخرى ، من رواية أبي عبيد الله
عمرو بن بشر الكسوفى ، عن أبي الأشعث ، عن عرام ، أتكلم عنها بعد .

ينقسم الكتاب الى قسمين ، يشغل أولها نحو ثلثيه ، والثاني الثلث الباقي . ويعالج
المؤلف في القسم الأول تهامة . ويبدوها بتحديد ما رأى أنه الحد الشمالي لها ، وهو جبل
رضوى . قال^(٤) : « أولها (رضوى) من ينبع على يوم ، ومن المدينة على سبع مراحل
ميامنة طريق المدينة ، ومياسرة طريق البرراء لمن كان مصعداً الى مكة ، وعلى ليلتين
من البحر ... » . وعندما ينتهي المؤلف من وصف منطقة رضوى ، يبدأ بالمدينة ثم يقوم
بما يشبه الرحلة الى مكة . فاذا ما بلغها قفز الى منطقة الطائف .

وكان هدفه من هذه الرحلة وصف ما يقابله من جبال . ويتضح من الكتاب وعنوانه
أنه كان في كل جبل يعني بتحديد موقعه ، ووصف شكله ونباته ، وحيوانه ، ومياهه ،
ووديانه ، وقراه ومدنه ، وإبانة سكانه .

فكان يحدد الموقع بإبانة أبعاده عما حوله ، وموضعه من الطرق المارة به ، كما يبين من

(١) ٨٤٦/١ . وانظر ١/١١٧ ، ٢٦٧ ، ٥٨٨ . (٢) ٢٦٩/١ .

(٣) نواذر المخطوطات - الجزء ٨ - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٥ م .

(٤) ص ٣٩٦ .

النص السابقة ، ومن تكلمته الآتية : « وبجذائها (عزور) وبينه وبين رضوى طريق المعركة تختصره العرب الى الشام ، والى مكة ، والى المدينة ، بين الجبلين قدر شوط فرس . وهما جبلان شاهقان منيعان لا يرومها أحد . نباتها الشوحط والقرظ والرّف - وهو شجر يشبه الضّياء » .

وكان يذكر قائمة بالنباتات التي تظهر في البقعة التي يتحدث عنها ، ويخشي ألا تعرف بعضها ، فيحاول تعريفها بذكر مرادفها ، أو شبيهاها من النباتات ، أو بوصف شكلها ، ومنفعتها ، وثمرتها ، وطعمها ، ورأحتها . قال عن جبلي نافل الأكبر والأصغر (١) : « نباتها العرعر ، والقرظ والظّيان ، والأيدع ، والبشام . ولاظيان ساق غليظة . وهو شاكٌ - أي غليظ الشوك - ويحتطب . وله سنفة كسنفة العسرق . والسنفة ما تدلى من الثمر وخرج عن أغصانه . والعسرق ورق يشبه الحندقوقا منتنة الريح . والأيدع : شجر يشبه الدّلب ، إلا أن أغصانه أشدّ تقاربا من أغصان الدّلب ، لها وردة حمراء ليست تجد طيب الريح ، وليس لها ثمر ... » .

وكان في وصفه للمياه بين قدرها ، ومنبعها ، وطعمها ، وفي الأودية بين مصابها . قال (٢) : « وفي نافل الأكبر عدّة آبار في بطن واد يقال له (يرتد) . يقال للآبار (الدباب) . وهو ماء عذب كثير غير منزوف ، أناشيط قدر قامة قامة . وفي نافل الأصغر ماء في دوّار في جوفه يقال له (القاحة) وهما بئران عذبتان غزيرتان » .

وكان في حديثه عن القرى والمدن بين قدرها ، وسكانها ، ومياها . وفي حديثه عن السكان يذكر القبائل التي تحل بالموضع ، وحالتها المالية ، وما تقوم به من أعمال (٣) . قال : « ثم أسفل منها (مهايع) وهي قرية كبيرة غنّاء ، بها ناس كثير ، وبها منبر ، ووالي ساية من قبيل صاحب المدينة ، وفيها نخل ومزارع وموز ورمان وعنب . وأصلها لولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفيها من أفناء الناس ، وتجار من كل بلد ثم خيف يقال له (خيف

(١) ٤١٤ .

(٢) ٤٠١ .

(٣) ٢٩٩ .

سلام) ... وفيه منبر وناس كثير من خزاعة . ومياهاها فُقرُ أيضاً ، وباديتها قليلة ، وهي جُشَمُ وخزاعة وهذيل . » .

وعالج المؤلف في القسم الثاني الحجاز ، وأراد أن يسير فيه على النهج الذي سار عليه في القسم السابق . ولكن المادة العلمية التي كانت لديه عنه قليلة ، ولذلك اضطر الى الإجمال والإخلال في حديثه ، فظهر البون واضحاً بين القسمين . قال ^(١) : « ثم (الطرف) لمن أمّ المدينة ، يكنفه ثلاثة جبال : أحدها (ظلم) وهو جبل أسود شامخ لا ينبت شيئاً ، و (حزْمُ بني عوال) وهما جميعاً لظفان . وفي عوال آبار منها (بئر ألية) اسم ألية الشاة ، و (بئر هرمة) و (بئر عُهير) و (بئر السُدرة) وليس بهؤلاء ماء ينتفع به . » .

ثم ألف أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري ، المتوفى في ٢٨٢ هـ ، كتاب البلدان ، الذي وصفه ابن النديم والقفطي بالكبر ^(٢) . وكل النقول التي عثرت عليها من كتابه الآخر ، كتاب النبات ، الذي يعد أعظم ما خلفه القدماء من الكتب التي تصف نباتاتهم .

وتقتني مكتبة شيخ الاسلام بالمدينة كتاباً ، منسوباً إلى أبي علي الحسن بن عبد الله المعروف بلغدة ، معاصر الدينوري ، عالج فيه الأماكن العربية . وتقتني عدة مكتبات عامة وخاصة في بغداد نسخاً منه ، نُقلت عن المخطوط المدني ، غير أنها جميعاً لا تذكر عنوان الكتاب . ولما كان من ترجم للغة لا يذكر له كتاباً من هذا النوع ، بقي عنوان الكتاب مجهولاً منا ، وإن حاول بعضهم أن يضع له من عنده عنواناً اعتماداً على مادته ، فسماه «صفة جزيرة العرب» أو «قبائل العرب ومياها وجبالها» ^(٣) .

واتخذ المؤلف من القبائل أساساً لبحثه ، فكان يتناول المياه والجبال التي تحمل بها

(١) ٤٢٤ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ٧٨ . النبطي ٤١/١ . ابن الانباري : الزهدة ١٦٥ .

(٣) مكتبة الاوقاف ٦٢١٦ . وعليها اعتماد في الوصف والاشارة . ومكتبة المتحف العراقي ٢٢٧ ، ١١٠٠ ، وانظر للقال القيم الذي نشره الاستاذ محمد رضا الشبيبي بعنوان : أقدم مخطوط وصل اليها عن بلاد العرب ، ص ٣٩ - ٤٥ من مجلة المجمع العلمي العراقي - الجزء الاول من السنة الاولى - ايلول ١٩٥٠ .

بطون قبيلة ما ، إلى أن يفرغ منها ، فينتقل الى غيرها . فهذه مواضع بني عقيل ، فواضع
بني فهم وعدوان ، فبني أسد ، فبني غنى الخ . قال (١) : « ومنزل بني ربيعة الجزيرة . ولبني
عامر بن عقيل بن ربيعة الجوفاء ، وهي معاوية وعوف ابني ربيعة . وغُضَى لعامر بن ربيعة
جميعاً ، ما خلا بني البكاء . ولهم بريم ، وهم شركاء جُشَم فيه . قال الراجز :

تذكَرْتُ مشرَّها من تُصلبها ومن بريم قَصَبها مشقبا

وتصلب لبني إنسان من بني جشم ... فهذه مياههم الأعداد التي يجتمع عندها ، ولهم
مياه سوى هذه ربما نزحت . ولهم من الجبال : حَضْن لجشم خاصة . والسود لهم أيضاً .
ولهم هَوَلَى ، والقامة . قال الأصمعي : بسّ وبسيان ورهوة في أرض بني جشم ونصر
ابني معاوية بن بكر بن هوازن » .

وعند ما ينتهي المؤلف من هذا السرد يصف ثلاثة طرق تخرج من حجر اليمامة ، وأولها
الى البصرة ، وثانيها الى الكوفة ، وثالثها إلى مكة . قال (٢) : « واذا خرجت من حجر تريد
الكوفة ، فأول ماء ترده يقال له الحبل - وهو في ناحية القُف ، وهو ماء لراعية اليمامة ،
وبينه وبين حجر نحو من خمسة فراسخ . ثم تخرج منه فتد القف ، وهي أرض خشنة
ظاهرة ، حتى تأخذ بين بنيان والعرض ، تدع بنيان يميناً والعرض يساراً . ثم تمضي حتى ترد
البالدية ، بالدية بني عُغَبَر ، وهي قرية فيها نخيل ومزارع ، وبين البالدية وحجر ليلتان ... » .

وفي أواخر الكتاب حديث عن المعادن المطمورة في باطن شبه الجزيرة العربية : نجدتها
وحجازها ، حيث ذكر الذهب والفضة والنحاس ، وغيرها . قال مثلاً (٣) : « الكوكبة
من وراء الغيصان ، على مسيرة يوم وليلة ، وهي على رأس جبل ، كان منقوباً فيه باب ،
وإنما سميت الكوكبة لأن رجلاً مرّ فاذا هو بفضة شبه الكوكب . فخرّوها فانشعبوا
فيها حتى كان يدخل فيها نحو من مئة رجل من مدخل واحد فينشعب كل واحد منهم في
معمل لا يراه صاحبه ، وهو لثمير » .

(١) ٤٩ .

(٢) ٤٢ .

(٣) ٢ .

واعتمد المؤلف في مادة كتابه على سكان البقاع التي يتحدث عنها ، وخاصة العامري الذي أخذ منه قسطاً كبيراً من كتابه . ولذلك جاء وصفه دقيقاً محكماً ، وخاصة لمنطقة اليمامة . ونقل السهمودي كثيراً من نصوصه عن كتاب لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأسدي^(١) ، من أهل القرن الثالث ، غير أنه لم يذكر اسمه . وتبين هذه النصوص أن الكتاب كان عن المدينة ومنطقتها ، اهتم بالمساجد التي صلى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، والطرق التي تتفرع من المدينة الى مكة ، والكوفة ، والبصرة . فسجل أبعادها بالأميال ، والبرد ، وعن المياه والآبار والسكان .

قال السهمودي^(٢) : « قال الأسدي في وصف طريق العراق : إنه [أي الطرف] على خمسة وعشرين ميلاً من المدينة ، وعلى عشرين ميلاً من بطن نخل . وذكر فيه آباراً وبركاً » . ونسب ابن النديم^(٣) الى أبي الأشعث عزيز بن الفضل الهذلي كتاب « صفات الجبال والأودية وأسمائها بمكة وما والاها » . وقد ذكر المرزباني في معجم الشعراء عزيزاً ، وقال عنه^(٤) : « محدث معتدي » أي أنه من الشعراء الذين اتصلوا بالخليفة المعتمد (٢٥٦-٢٧٩) . ولكنني لم أعثر عند البكري أو ياقوت على نقول معزوة اليه .

ولما طبع كتاب عرام بن الأصمغ السالف الذكر ، أثار كثيراً من المشاكل . فقد نقل البكري منه كثيراً من النصوص ، رواية عن أبي عبيد السكوني ، عن أبي الأشعث عنه . ونقل ياقوت كثيراً منه عن أبي الأشعث . وتبين من مقارنة النقول والكتاب المطبوع أن أبا الأشعث عبد الرحمن بن محمد الكندي كان مجرد رواية أمين لكتاب عرام . أما أبو عبيد الله عمرو بن بشر السكوني فلم يكتب بالرواية . فكثير من النصوص التي نقلها البكري عنه غير موجودة في كتاب عرام المطبوع ، بل تختلف عن منهجه أيضاً . اذ يقيم علاجه للأماكن على وصف رحلات يقوم بها الإنسان من مدينة معروفة الى المنطقة التي يريدتها ، ويصف كل ما يقابله في هذه الرحلة وكثيراً ما كان هذا الإنسان هو المصدّق ،

(١) ١٦٤/٢ . (٢) ٣٣٩/٢ . (٣) ١١٤ . (٤) ١٧٣ .

أي أخذ الصدقات والزكاة من القبائل . وقد ذكر البكري عدة رحلات من هذا النوع .
 فاستنتج من ذلك الأستاذ عبد السلام هارون أن « كتاب السكوني في جبال تهامة هو
 رواية حرة لكتاب عرام اعتمدت على التعليقات الكثيرة والإضافات الاستطراذية (١) »
 أو « أن السكوني جعل الكتاب أساسه في الرواية ، ولكنه زاد عليه كثيراً من التعليقات
 والإضافات ، شأن كثير من رواة الكتب الأقدمين (٢) » . ولكن الدكتور صالح أحمد
 علي درس هذه النصوص ، فتبين له أن كثيراً منها موجود في وفاء الوفا للسمهودي ، مروية
 عن أبي علي الهجري ، الذي لا يمكن إلا أن يكون غير السكوني (٣) . وصار الأمر مشكلة
 تحتاج إلى مواد جديدة ليتيسر الاهتداء إلى وجه الصواب فيها .

ونسب ياقوت في مقدمة معجم البلدان (٤) كتاباً لأبي عبيد السكوني لم يصرح باسمه ،
 ونقل عنه في المعجم ٦٠ نصاً ، درسها الدكتور صالح أحمد العلي (٥) ، ووجد أنها تتصل
 بطريق حاج واسط ، والكوفة ، والبصرة ، ومناطق من الشام وجبلي طي . وتبين من هذا
 أن السكوني تناول في كتابه جغرافية الجزيرة كلها ، وأنه اهتم بطرق المواصلات ، والأبعاد
 بين الأماكن ، وحددها بالأميال ، وبالأماكن القريبة من محاطة الطرق الرئيسية ، والآبار
 وأعماقها ، والسكان وعشائرهم ، وأنه من أدق وأشمل من وصف جزيرة العرب عامة .

قال ياقوت (٦) : « قال أبو عبيد السكوني : خَفَّان : من وراء اللُّسوخ ، على ميلين
 أو ثلاثة ، عَيْن ، عليها قرية لولد عيسى بن موسى الهاشمي ، تعرف بخفان . وهما قريتان من
 قرى السواد ، من كُفَّ الحجاز . فمن خرج منها يريد واسطاً في الطف ، خرج إلى نجران
 ثم إلى عدينييا وُجْدُ بلاء ثم قناطر بني دارا وتل تخار ثم إلى واسط » .

ولكننا يجب أن نفرق بين هذا السكوني ، وأبي عبيد عمرو بن بشر السكوني الذي
 نقل عنه أبو عبيد البكري كتاب عرام . فإنني أعتقد أن هذا السكوني هو أبو عبيد الله

(١) ٣٧٢ . (٢) ٣٧٦ . (٣) ٣٦٠٣٢ .

(٤) ٧/١ . (٥) المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز ٢٨ — ٤٢ .

(٦) ٤٥٦/٢ .

[أو أبو عبيد الله] أحمد بن الحسن السكوني ، الذي ترجم له ياقوت في معجم البلدان ^(١) ، وكان مختصاً بالمكتفي (٣٣٣ - ٣٣٤) والمقتدر (٣٣٤ - ٣٦٣) ، وألف كتاباً في أسماء مياه العرب ، صرح ياقوت انه رأى نسخة غير تامة منه ونقلها .

وعدّ ياقوت ^(٢) كتاب « صفة جزيرة العرب » لأبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني ، المتوفى في ٣٣٤ هـ ، من هذا النوع من الكتب . وبالرغم أني لا أوافق كل الموافقة ، أدون وصفاً سريعاً ومختصراً للكتاب ، ليتضح منهجه ، وما بينه وبين الكتب التي أتحدث عنها من مشابه وفروق .

صدر الهمداني كتابه بعدة فصول جغرافية خالصة أو تكاد . فتحدث عن الجزيرة العربية ، باعتبارها أفضل البلاد المعمورة ، فأبان حدودها ومسافاتها ، ثم تحدث عن تقسيم بطليموس الأرض الى اقاليم ، ودوائر ، وخطوط الطول والعرض ، وما ذكره بطليموس عن طبائع أهل العمران . وختم بإبانة خطوط طول مدن العرب المشهورة وعرضها . ثم بدأ الكتاب الحق بالأمور التي يعنى بالحديث عنها ، وهي ^(٣) « مساكن هذه الجزيرة ومساكنها ومياهها وجبالها ومراعيها واوديتها ونسبة كل موضع منها الى سكانه ومالكه على حد الاختصار ، وعلى كم تجزأ هذه الجزيرة من جزء بلدي ، وفرق عملي ، وصقع سلطاني ، وجانب فلكوي ، وحيّز بدوي » .

ثم استهل حديثه بأولاد نزار ، وتفرقهم ، وسبب تسميتها بالجزيرة : وأقسامها . وبدأ باليمن موطنه ، فأفاض فيه ، وعالج منه كل شيء ؛ وما بقى من الكتاب — وهو قليل — وزّعه على بقية أنحاء الجزيرة . وكان يتحدث عن الأماكن حسب تسلسلها الجغرافي ، ويفيض في الحديث عن النواحي البشرية ، وأكثر من الشعر في آخر الكتاب خاصة . ويعد كتاب الهمداني اكبر الكتب التي تناولت الجزيرة العربية ، وأهم الكتب عن اليمن . قال ^(٤) : « ومن أخذ الجادة من مكة الى معدن النقرة ، فمن مكة الى البستان تسعة

١٨٥ (٤)

٤٦ (٣)

٧/١ (٢)

٩/٣ (١)

وعشرون ميلاً . وعرض البستان أحد وعشرون جزء اربع . ومنه الى ذات عرق أربعة وعشرون ميلاً . وعرض ذات عرق أحد وعشرون جزءاً وثلاثاً جزء . ومنها الى الغمرة عشرون ميلاً . وعرض الغمرة اثنان وعشرون جزءاً .. » .

ونسب ابن النديم ^(١) الى أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي المتوفى نحو ٣٦٠ هـ « كتاب المناهل والأعطان والحنين الى الأوطان » . ويبدو أنه لم يقع لياقوت ولا البكري .

وذكر ياقوت في مقدمة معجم البلدان ^(٢) عن أبي سعيد الحسن بن عبدالله السيرافي المتوفى في ٣٦٨ هـ : « بلغني أن له كتاباً في جزيرة العرب » . ولكنه نسب اليه دون تميز في المعجم ، ونقل نصاً عنه ، قال في صدد حديثه عن أجياد ^(٣) : « قال أبو سعيد السيرافي في كتاب جزيرة العرب من تأليفه : هو موضع خروج دابة الأرض » . وما نسب ياقوت الى السيرافي من النصوص قليل جداً ، لانستطيع أن نستخلص منه معالم لكتابه .

وألف الحسين بن محمد الراقي الخالغ ، المتوفى في ٣٨٨ هـ ، كتاب « الأودية والجبال والرمال ^(٤) » . ونسب اليه ياقوت ^(٥) ثلاثة نصوص ، كلها تتحدث عن الرياض . مثال ذلك قوله : « روضة الحداد : كذا وجدته في كتاب الخالغ : بالحاء ، وعندني أنه الجداد ، بالجيم والضم ، والجداد : صغار الطلح . قال : الحداد : واد عظيم . قال اياس بن الأرت : حيّ الجميع بروضة الحداد من كل ذي كرم يزين النادي »

وألف أحمد بن فارس الرازي ، المتوفى في ٣٩٥ هـ ، كتاب « دارات العرب ^(٦) » . وقد أشار اليه ياقوت في مطلع حديثه عن الدارات ، قال ^(٧) : « وهي نيف على ستين دارة ، استخراجتها من كتب العلماء المتقنة ، وأشعار العرب المحككة ، وأفواه المشايخ الثقات .

(١) الفهرست ١٥٥ . (٢) ٧/١ . (٣) ١٣٨/١ .

(٤) ١٥٥/١٠ . السيوطي : البنية ٢٣٥ . وانظر التنوخي : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق

١٥٨/١٥ .

(٥) معجم البلدان ٤/٢ ، ٨٤٧ ، ٨٥٦ ، ٤٧٥/٤ . (٦) ابن الأنباري : نزهة الألباء ٢٢٠ .

(٧) ٥٢٦ : ٢ .

واستدللت عليها بالأشعار حسب جهدي وطاقتي ، والله الموفق . ولم أر أحداً من الأئمة
القدماء زاد على العشرين دائرة إلا ما كان من أبي الحسين بن فارس ، فإنه أفرده (؟) كتاباً ،
فذكر نحو الأربعين . فزدت أنا عليه بحول الله وقوته نحوها . ونقل ياقوت عن ابن
فارس في بعض المواضع ، ولكن أرجح أنها كلها مأخوذة من أماليه (١) .

ومن أهل القرن الخامس ، ألف أبو محمد الحسن بن أحمد الأسود الأعرابي الغندجاني ،
الذي كان حياً في ٤٢٨ هـ ، كتابي « أسماء الأماكن » (٢) و « مياه العرب » . واشتهر
ياقوت إلى ثانيها بين الكتب التي رجع إليها عند تأليف معجم البلدان (٣) . والنقول التي
يعزوها إليه كثيرة ومتنوعة ، غير أنه لم يصرح باسم الكتاب الذي ينقل عنه . فهو
يتحدث عن المياه كثيراً (٤) ، ولكنه يتحدث عن غير المياه أيضاً (٥) ، بل ينقل عنه
أشعاراً فقط (٦) ، كما ينقل عنه أخباراً وأساطير عربية (٧) .

وفي القرن الخامس أيضاً ، ألف أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ، المتوفى
في ٤٨٧ هـ ، كتاب « معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع » . وحسب المؤلف
موضوعه في صدر مقدمته ، حين قال (٨) : « هذا كتاب ذكرت فيه — إن شاء الله —
جملة ما ورد في الحديث والأخبار ، والتواريخ والأشعار ، من المنازل والديار ، وأنقرى
والأمصار ، والجبال والآثار ، والمياه والآبار ، والدارات والجرار » . فالبكري إذن يعني
بكل ما ورد اسمه في الحديث والأخبار والشعر من الأماكن .

ورمى بذلك إلى هدف لغوي ، جلاه في قوله (٩) : « فإني لما رأيت ذلك قد استعجم

(١) ٤٠٥ : ١ . (٢) السيوطي : البقية : ٢١٧ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ٧/١ .

(٤) نفس المرجع ١/٣٦٤ ، ٢٩٥ ، ٣ ، ٦٠٢ وغيرهما .

(٥) ٦٠/١ ، ٣٩١/٣ ، ٤١٤ ، ٦٧١ وغيرهما .

(٦) ١/٨٠٠ ، ٩٣٣ ، ٢/٢٦٤ ، ٣/٢٧٣ ، ٧١٤ ، ٤/٦٩١ وغيرهما .

(٧) ١/١٢٧ ، ١٣٠ ، ٤٠٦ ، ٢/٩٩ ، ٣/٣٠٢ ، ٤١٢/٣ ، ٦٠٩ ، ٨٦٤ وغيرهما .

(٨) ١ .

(٩) ١ .

على الناس ، أردت أن أفصح عنه ، بأن أذكر كل موضع مبين البناء ، معجم الحروف ، حتى لا يدرك فيه لبس ولا تحريف .

ورتب المؤلف كتابه وفقاً للحروف العربية ، ولكن على نظامها عند المغاربة ، وهو يتفق مع ترتيبنا المشرقي الى الزاي ، ثم يختلف على النحو التالي : ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه و ي . واعتمد في ترتيب المواضع على الحرفين الأولين ، وأهمل ما بعدها من حروف . وإذا كان الحرف الثاني ألفاً زائدة أهملها واعتبر الحرف الذي بعدها . وقد طبع الكتاب في جوتنجن ، على يد المستشرق فستنفلد ، على هذا الترتيب . ثم أعاد طبعه الاستاذ مصطفى السقا في القاهرة ، بعد أن غير ترتيبه وفقاً للألفباء المشرقية ، التي أخضع لها حروف الكلمة كلها ، غير مقتصر على حرفين فقط .

ونهج المؤلف في كتابته عن المواضع أن يضبط الحروف بالعبارة ، ثم يحددها ، مع نسبة كل قول الى قائله من اللغويين والاختباريين المشهورين ^(١) . وقد أوضح استاذي مصطفى السقا هذا النهج في قوله ^(٢) : « يعول المؤلف في الضبط على الشعر العربي أولاً ، ف يأتي بالشعر الذي ورد فيه اسم المكان ، ويسنده الى الراوي الذي نقله من العلماء ، ويوازن بين الروايات ، ويرجح رواية الثقات ، ويعتمد في ذلك على النسخ الفدّة ، التي كتبها العلماء أنفسهم بأيديهم ، أو التي كتبها وراقوهم المعروفون ، أو تلاميذهم المبرزون ، وقرءوها عليهم ... وكان يعتمد في الحديث على روايات الكتب الصحاح ، وخاصة الموطأ ، والبخاري ، وسنن أبي داود ، وينقل كثيراً من الاحاديث عن ابن وهب وابن القاسم من شيوخ المالكية . وينقل عن ابن اسحاق صاحب السيرة ، وعن أبي جعفر الطبري . ويصحح ما وقع في كتب أولئك وهؤلاء ، من تحريف في اعلام البلدان » . واضيف الى ذلك ما نقله من المعاجم اللغوية ، وخاصة من جهرة ابن دريد .

وامثل لمنهجه بقوله ^(٣) : « البان — على وزن افعال ، كأنه جمع كبن : موضع في ديار بني هذيل . قال ابو حاتم : هو جبل اسود في ديار بني مُرّة بن عوف ، قال ابوقلابة :

(١) ١٨٦/١ (٣)

(٢) د .

(٣) ١٤٠١

يادار أعرفها وحشا منازلها بين القوأم من رهط فألبان
فدمنة فرخيات الأحت الى ضوَجِي دفاق كسحق للملبس الفاني
هذه كلها مواضع متقاربة . والقوأم : جبال منتصبة هناك . قال تأبط شراً :

هَلَسَأَلْتُ عُمَيْرًا عَنْ مِصَاوِلِي قَوْمًا مَنَازِلَهُمْ بِالصَّيْفِ أَلْبَانُ «
وصدّر البكري كتابه بمقدمة طويلة ، في ٩٠ صفحة ، عالج فيها أقسام بلاد العرب
المختلفة ، وتفرّق القبائل ورحلاتها فيها . وهي مقدمة عظيمة الأهمية من الناحية الجغرافية
والتاريخية .

ويؤخذ عليه أنه لم يحدد كثيراً من مواضعه ، أو أعطاه تحديداً غير دقيق ، وأنه أحال
في كثير منها الى مواضع أخرى ، بل مواضع جاءت عرضاً في بعض الرسوم الأخرى .
ولكنه مرجع لاغناء عنه لكل من يشتغل بالتاريخ العربي القديم والجغرافيا والشعر
الجاهلي (١) .

وفي القرن السادس ، ألف أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، المتوفى في ٥٣٨ هـ ،
كتاب « الجبال والأمكنة والمياه » . وحاول ان يرتب القسط الأكبر منه . فاعتمد في
ذلك على الحرف الأصلي الأول وحده ، واهمل بقية الحروف . ولكنه اضطرب في الاسماء
المكونة من مضاف ومضاف اليه ، فاعتبر الصدر أحياناً ، كما في أبي قبيس ، وأم خنور ،
وأم خرمان ، وام موصل ، وام اوغال ، التي وضعها في باب ما أوله همزة ؛ وبرقة شماء ،
وبستان ابن عامر ، وبطن مر ، وبطن اللوى ، وبقيع الفرقد ، وبقاع الكلب ، وبتّر
بضاعة ، وبيت جبريل ، وبرقة الروحان ، وبيت رأس ، وبتّر أبي عنبة ، وبتّر مصونة ،
وبرك الغهاد ، التي وضعها في باب ما أوله باء . واعتبر العجز أحياناً ، كما في معدن الأحسن ،
وسوق حباشة ، وأبرق الجنان ، التي وضعها في باب ما أوله حاء ؛ ورمل مخفق ، وجبل
خليج ، التي وضعها في باب ما أوله الخاء ؛ وجبل رنقاء ، ومرج راهط ، اللذين وضعهما
في باب ما أوله راء .

(١) كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي ٢٢٨ .

ثم ألحق به أربعة فصول تعالج الطريق بين ينبع ومكة . فجعل الفصل الأول منها لأسماء الجبال الكبيرة ، والثاني للجبال الصغيرة ، والثالث للأودية ، والرابع للمياه . ولم يراع الزمخشري في هذه الفصول الأخيرة ترتيباً ما - فيما يبدو . ولم يتعمد منهجه فيها إعطاء قوائم بأسمائها ، ولم يعن بتحديداتها أو وصفها أو إيراد شواهد شعرية عليها إلا نادراً كـل الندره . مثال ذلك قوله في الفصل الأول (١) : « شعران ، ويمنى ، وبضع ، والعناب ، وسيان ... وسراوع . وأنشد الجحوش الخفاجي :

نظرت - ومن دوني تهامة كلها
وحر الدرأ معروف من سراوع »

أما الكتاب نفسه ، فقد ترك فيه كثيراً من البقاع دون تحديد ، ولجأ في بعضها إلى تحديدها بما يجاورها ، أو بأسماء من يسكنها من قبائل ، أو بالإقليم الذي تقع فيه ، أو بأكثر من واحد من الأمور السابقة ، مع بيان المسافة بينها وبين بعض البقاع الأخرى المشهورة في أحيان أخرى ، ووصفها في أحيان بذكر نباتها ، أو ارتفاع جبالها وألوانها . وقد علل بعض الأسماء ، وأورد في ذلك بعض الخرافات ، وكان ذلك قليلاً جداً . واستشهد بأشعار نسب بعضها إلى قائله ، وأهمل بعضها الآخر . وتظهر على الكتاب خصائص المختصرات .

وأمثل له بقوله (٢) : « الدثنية والدفينة : منزل لبني سليم . الدخول : موضع . وقيل : بئر نميرة كثيرة الماء . دارة الجثوم : لبني الأضببط بن كلاب - والجثوم : ماء لهم يصدر في دارة بيضاء . دارة غبير : لبني الأضببط بها ماء يسمى الغبير . الدهناء : موضع في بلاد بني تميم . درني : موضع . قال الأعشى :

حلّ أهلي ما بين درني فبادو
لي ، وحلت علوية بالسخال »

وصرح ياقوت (٣) أنه رأى كتاباً لأبي الحسن علي بن محمد العمراني الخوارزمي ، المتوفى نحو ٥٦٠ هـ ، وإن مؤلفه وقف على كتاب شيخه الزمخشري وزاد عليه . وعبارة

(١) معجم البلدان ١/٧ .

(٢) ٥٤ .

(٣) ١٥٥ .

ياقوت موهمة . فقد وسع العمراني مجال دراسته ، فشمّل العالم الإسلامي كله ، من خوارزم شرقاً إلى المغرب غرباً ، بل تعرض لبعض البلدان غير الإسلامية مثل القديونين ، وقرار ، وقنوة ، ومجدونية ، من بلاد الروم ، ووضح ان اكثرها غير مشهور ، مما قد يدل على انه حاول ان يتحدث عن بلاد الروم كلها . ووضح من نقول ياقوت عنه كثرة المواضع غير العربية التي تعرض لها .

ورتب العمراني كتابه « المواضع والبلدان » على الألفباء ، ولكنه لم يقتصر على الحرف الأول كأستاذة . فقد ذكر ياقوت (١) : « قال ابو الحسن الخوارزمي : عيقة : موضع ذكره في هذا الباب من العين مع الياء » . فدل على انه راعى الحرفين الأولين على الأقل . وذكر ياقوت (٢) ان العمراني وضع قلبها بالياء بعد قلبها بالياء ، مما قد نستنتج منه انه راعى حروف الكلمة كلها . ولكن ذلك غير ضروري ، لأنه - فيما يبدو - كان يضع المواضع المتشابهة في الخط ، فيخاف عليها اللبس والتحريف ، في موضع واحد ، مما يؤيد قول ابن خلكان ان عنوان الكتاب (٣) « ما اتفق لفظه وافترق معناه في الاماكن والبلدان المشبهة الخط » . ويبدو انه في داخل كل فصل لم يراع الترتيب فقد قدم قلبها بالياء على الثانية مرة ، ولكنه قدم قراش بالشين على قراس ، في فصلها (٤) .

واختلف العمراني مع استاذة في ضبط بعض الاماكن . فقد ضبط الزمخشري حقال (٥) بكسر الحاء وتخفيف القاف ، وضبطه هو بفتح الحاء وتشديد القاف ، وقال ياقوت (٦) : « قال العمراني : مَرَجَح - بفتح الميم والباء : رمل من رمال زرود ، وعن جار الله بضم الميم وكسر الباء » .

وحاول العمراني أن يحدد مواقع المواضع التي تحدث عنها ، فأفصح في بعضها ، ولم يفلح في بعضها الآخر ، وخاصة البعيدة عن موطنه وعن الجزيرة العربية ، فاكتفى في كثير منها

(١) ٢٥٣/٣ . (٢) ١٦٨/٤ . (٣) ٤٢١/٣ .

(٤) ١٧/٤ . (٥) ٢٩٨/٢ . (٦) ٤٨٣/٤ .

أو أكثرها بأنها مواضع ، أو مواضع بمصر ، أو المغرب ، أو بلاد الروم ، أو ما شاكل ذلك .

قال : ^(١) « الأعيان ، بالنون : موضع ، في قول عتبية بن الحارث بن شهاب اليربوعي :

تروحننا من الأعيان عصراً فأعجلنا الإلاهة أن تؤوبا

هكذا رواه أبو الحسن العمري . ورواه الأزهري : تروحننا من اللعاء » .

وقال ^(٢) : رَزِيْبِيْط ... مدينة بالمغرب ، عن العمري » .

ويبدو أن ياقوتاً كان سيء الظن بالعمري ، فشك في كثير من مواده ^(٣) ، وعدل عن

ضبطه ^(٤) ، وحكم عليه بالتصحيح في الضبط والحروف ^(٥) ، ولم يرض عن تحديده لبعض

المواقع ^(٦) ، ورمأها بالخطأ ^(٧) . ثم اتهم العمري بسوء الفهم ، حتى اعتقد أن مسهرة أرض

وهي قبيلة ^(٨) ، وأن حليلة المذكورة في المثل « ما يوم حليلة بسر » موضع وهي امرأة ^(٩) ،

وأن ربا التي ذكرها جرير موضع وهي امرأة ^(١٠) .

والف أبو الفتح نصر بن عبدالرحمن الفزاري الإسكندري ^(١١) ، المتوفى في ٥٦٠ هـ ،

كتاب « أسماء البلدان والأمكنة والجبال والمياه » الذي أعجب به ياقوت كثيراً واتخذ منه

أحد العمد الرئيسة التي رفع عليها معجمه ، بحيث رأى محققه أن من العبث فهرسة

المواضع التي ذكر فيها نصر .

ومن العسير - في مثل هذه الحالة التي التحمت فيها مادة نصر بمادة ياقوت - أن نتبين

(١) ٣١٧ / ١ (٢) ٧٠٥ / ٢

(٣) ١٠٨ / ٣ ، ٤٥١ ، ٣٤٤ ، ٧٧٤ وغيرها .

(٤) ٧٣٩ ، ٧٧١ ، ٩٢٠ وغيرها .

(٥) ٤٦٩ ، ٩٥١ ، ١٠٨ / ٣ ، ١٥٦ ، ٢٤٥ ، ٦١٧ وغيرها .

(٦) ٤٤١ / ٢ (٧) ٥٧١ / ٢ (٨) ٧٠٠ / ٤

(٩) ٣٢٥ / ٢ ، وانظر ٣ : ١٢٥ (١٠) ٨٨١ / ٢

(١١) ياقوت : معجم البلدان ١ / ٨ . وانظر حديث كراتشكوفسكي عن المخطوطة المحفوظة بالمتحف

البريطاني منه ، ٣٢٢ - ٣٢٣ .

خصائص منهجية لنصر. ولكن الواضح أن نصراً كان ميالاً إلى الدقة في تحديد المواضع التي يذكرها ، وكان يحددها بذكر ما يجاورها أو إقليمها أو قطرها ، أو ساكنيها من القبائل ، أو أكثر من واحد من الأمور السابقة . وحاول أن يصف ما يحتاج إلى وصف من الأماكن ، واعتمد على الشعر والحديث في استخلاص مادته . ولا نعدو الحق حين نظن أنه كان مرتباً على الألقاب ، لأن الكتب التي اختصرته أو اعتمدت عليه كانت كذلك .

قال نصر : الأُدواء - بضم الهمزة وفتح الدال : موضع في ديار تميم بنجد^(١) ... أديم - أيضاً : عند وادي القرى من ديار عذرة ، كانت لهم بها وقعة مع بني مرة ، عن نصر^(٢) ... نَهْمَد : جبل أحمر فارد ، من أخيلة الحمى ، حوله أبارق كثيرة في ديار غنى^(٣) .
وألف محمد بن أبي القاسم بن بايخوك البقالي ، المتوفى في ٥٦٢ هـ ، كتاب « منازل العرب ومياها^(٤) » ولكنني لم أعثر على مقتبسات منه تهديني إلى حقيقته ، ومنهجه ، وقيمه .

ولم يكن ياقوت وحده المعجب بكتاب أبي الفتح الإسكندري ، بل أعجب به أكثر من جاء بعده من المؤلفين . فاختصره أبو موسى محمد بن عمر المديني الأصفهاني ، المتوفى في ٥٨١ هـ ، في كتابه « ما اختلف واثلف من أسماء البقاع^(٥) » .

وقد وقف ياقوت على الكتاب ومدحه ، قال^(٦) : « تأليف رجل ضابط ، قد أنفد في تحصيله عمراً ، وأحسن فيه عيناً وأثراً » . وقد تعرض فيه للأماكن العربية ، وغير العربية ، واتسم تحديده مواقعها بالدقة . قال^(٧) : « المضيح : جبل بنجد على شط وادي الجريب من ديار ربيعة بن الأصبط بن كلاب ، كان معقلاً في الجاهلية ، في رأسه متحصن وماء » .

وذكر في المواضع التي تحدث عنها من ينسب إليها من العلماء . ويبدو أن هذا من

(١) ١٧٠ / ١ (٢) ١٧١ / ١ (٣) ٩٤٢ / ١

(٤) السبوطي : البنية ٩٢ . (٥) ياقوت : معجم البلدان ٨ / ١

(٦) ٨ / ١ (٧) ٥٦٠ / ٤

زياداته على أبي الفتح الإسكندري ، لأن أكثرها منسوب إليه في معجم ياقوت . فإن كان الأمر كذلك ، كانت تلك الظاهرة تتجلى في هذا الكتاب للمرة الأولى ، وإن كانت غير فذة لأنها كانت منتشرة في كتب الأنساب والأعلام ، لمعرفة الألقاب .

كذلك اتخذ أبو بكر محمد بن موسى الحازمي ، المتوفى ٥٨٤ هـ ، كتاب أبي الفتح الإسكندري أساساً لكتابه المسمى « ما اتفق لفظه واختلف مسماه من الأمكنة المنسوب إليها نفر من الرواة ، والمواضع التي ذكرت في مغازي رسول الله » أو « المؤلف والمختلف في أسماء البلدان » ، حتى قال عنه ياقوت ^(١) : « وجدت الحازمي - رحمه الله - قد اختلسه وادعاه واستجمل الرواة فرواه » . ويبدو أن ياقوتا كان حاقداً على الرجل ، قال : « ونقد كنت عند وقوفي على كتابه أرفع قدره عن علمه ، وأرى أن مرماه يقصد عن سهمه ، إلى أن كشف الله خبيثته ، وتمحّض المحض عن زبدته » . ولذلك لم يرجع إليه إلا مرات قليلة نعين منها أن الرجل كان يرد على المدني أحياناً ^(٢) ، وكان يذكر المنسوبين إلى المواضع التي يتحدث عنها ^(٣) .

ثم بلغ هذا الفرع اللغوي الجغرافي القمة ، حين ألف أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي (٥٧٤ - ٦٢٦) كتابه « معجم البلدان » ، الذي قام بطبعه المستشرق فردنند فستنفلد في ليبسك عام ١٨٦٦م في أربعة أجزاء كبار ، وآخرين للنهارس والتعليقات ثم طبع في القاهرة في ٨ أجزاء ، بدون فهارس ولا تعليقات في سنة ١٩٠٦ م ، ثم في بيروت حديثاً .

وكان المؤلف يرمي فيه إلى ما رمى إليه البكري قبله ، أعني تخليص أسماء ، الأماكن من التصحيف ، لأهميتها عند أهل العلوم المختلفة .

أما مادة الكتاب ، فهي - تبعاً لقول المؤلف في مقدمته - : « أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان ، والقرى والمحال والأوطان ، والبحار والأنهار والغدران ، والأصنام والأبداد والأوثان » .

(١) ٢٠٥٦ : ٢ ، ٤٩٤ .

(٢) ٥٧٦ : ٢ .

(٣) ٨ / ١ .

ولم يقصر بحثه على بلاد العرب أو الخلافة الاسلامية ، بل تعداها إلى العالم القديم الذي عرفه المسلمون . واستمد هذه المادة من كتب المؤلفين السابقين في البقاع ، ومن كتب الأدب والحديث ، أو كما قال في مقدمته بعد أن ذكر بعض كتب البقاع : « وهذه الكتب المدونة في هذا الباب التي نقلت منها . ثم نقلت من دواوين العرب والمحدثين ، وتواريخ أهل الأدب والمحدثين ، ومن أفواه الرواة وتفاريق الكتب . وما شاهدته في أسفاري وحصلته في تطوافي أضعاف ذلك » .

ورتب الأسماء وفقاً لحروفها كلها : أصلية ومزيدة ، للمرة الأولى في هذا النوع . قال : « فأقسمه ثمانية وعشرين كتاباً على عدد حروف المعجم . ثم أقسم كل كتاب إلى ثمانية وعشرين باباً للحرف التالي للأول . وألزم ترتيب كل كلمة منه على أول الحرف وثانيه وثالثه ورابعه وإلى أي غاية بلغ . فأقدم ما يجب تقديمه بحكم ترتيب ا ب ت ث على صورته الموضوعه له ، من غير نظر إلى أصول الكلمة وزوائدها ، لأن جميع ما يرد إنما هي أعلام لمسميات مفردة ، وأكثرها مجمية ومرتبجة لامساغ للاشتقاق فيها » .

ووصف ياقوت منهجه في الحديث عن الأماكن التي تكلم عنها ، فقال : « فاستخرت الله تعالى وجمعت ما شئتوه ، وأضفت إليه ما أهملوه ... ووضعت وضع أهل اللغة المحكم ، وأبنت عن كل حرف من الاسم : هل هو ساكن أو مفتوح أو مضموم أو مكسور ، وأزلت عنه عوارض الشبهة ... ثم أذكر اشتقاقه إن كان عربياً ، ومعناه إن أحطت به علماً إن كان عجمياً ، وفي أي إقليم هو ، وأي شيء طالعه ، وما المستولى عليه من الكواكب ، ومن بناه ، وأي بلد من المشهورات يجاوره ، وكم المسافة بينه وبين ما يقاربه ، وبماذا اختص من الخصاص ، وما ذكر فيه من العجائب ، وبعض من دُفن فيه من الأعيان والصالحين والصحابه والتابعين [والمنسويين إليه] ، ونبدأ مما قيل فيه من الأشعار في الحنين إلى الأوطان ، والشاهدة على صحة ضبطه والإتقان ، وفي أي زمان فتحه المسلمون وكيفية ذلك ، ومن كان أميره وهل فتحه صلحاً أو عنوة ، لتعرف حكاه في النفي ،

والجزية ، ومن ملكه في أيامنا هذه . على أنه ليس هذا الاشتراط بمطواع لنا في جميع ما نوردّه ، ولا يمكن في قدرة أحد غيرنا ، وإنما يجيء على هذا البلدان المشهورة والأهات المعمورة ، وربما ذكر بعض هذه الشروط دون بعض على حسب ما أدانا إليه الاجتهاد .. واستقصيت لك الفوائد جلها أو كلها ... حتى لقد ذكرت أشياء كثيرة تأبأها العقول ... لبعدها عن العادات المألوفة ، وتنافرها عن المشاهدات المعروفة » .

وإذن فالكتاب يتأثر باللغويين في ترتيب الأسماء ، وضبطها ، وإبانة اشتقاق العربي منها ، ومعنى الأعجمي ، وفي تحديد أبعاد الأماكن بما جاورها من البقاع المشهورة ، والاستشهاد بالشعر على الضبط والتحديد . ويتأثر بالجغرافيين في إبانة أقاليم المواضع ، وخطوط طولها وعرضها ، وبالفلكيين في الكشف عن طالع كل منها تبعاً للكوكب المستولى عليه . ويأخذ من التاريخ تاريخ المدن ، والمنسويين اليها ، وفتح المسلمين لها ، وأميرها في عصر ياقوت . ويستمد من المأثورات الشعبية كثيراً من القصص والأخبار ، المتعلقة ببناء هذه المدن ، وخصائصها ومعجزاتها .

وصدر ياقوت كتابه بمقدمة جغرافية طويلة ، اشتملت على خمسة أبواب ، عالج فيها صورة الأرض ، وتقسيمها إلى أقاليم ، ومعاني المصطلحات الكثيرة الدوران في الكتاب وحكم البلاد التي فتحها الإسلام في الفتي ، والحراج ، وجملاً من أخبار بعض البلدان . وكلها أمور لا تدخل في نطاق بحثنا هذا .

وقد وصف كراتشكوفسكي أهمية معجم ياقوت ، فقال ^(١) : « هو أوسع وأهم ، بل وأكاد أقول أفضل مصنف من نوعه لمؤلف عربي للعصور الوسطى . ولتكوين فكرة عن حجمه يكفي أن نذكر أن المتن المطبوع يضم ٣٨٩٤ صفحة . وهو جامع للجغرافيا في صورها الفلكية والوصفية واللغوية وللرحلات أيضاً ، كما تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية إلى جانب الدين والحضارة والاثنولوجيا (علم الأجناس والفصائل البشرية) والأدب الشعبي

وذلك في القرون الستة الأولى للهجرة . ويقرب عدد الشواهد الشعرية وحدها فيه - وذلك بين صغيرها وكبيرها - من الخمسة الآلاف .

واستخرج ياقوت من معجمه كتاباً مختصراً باسم « المشترك وضعاً والمفترق صقعا » . حذف منه كثيراً من الإطلاقات الجغرافية والأخبارية ، فاقرب به من كتب اللغة ، وجمله في مجلد واحد .

ووصل إلينا مصنف آخر يختصر معجم ياقوت تحت اسم « مرصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع » واختُلف في صاحبه ، فنسبه بعضهم إلى ياقوت ، ويبدو أنه خدعهم ما أعلنه ياقوت في مقدمة المعجم عن طلبوا إليه اختصاره . ونسبه بعضهم إلى صفى الدين عبدالمؤمن بن عبدالحكم (المتوفى في ٧٣٩) وبعضهم الآخر إلى السيوطي (المتوفى في ٩١١) ونختم بالإشارة إلى كتاب المنفق وضعاً والمختلف صقعا لأبي طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي صاحب القاموس المحيط^(١) (٧٢٩ - ٨١٧) ، ولم يصل إلينا .

وصفة القول أن هذه الكتب جميعاً كانت تهتم بالاسم أكثر من المسمى ، باعتبار الاسم من المادة اللغوية التي تعالجها في الشؤون الأخرى ، واعتمدت على الشعر والأخبار العربية في استخلاص هذه الأماكن وتحديد مواقعها ، كما يعتمد عليه اللغويون في تفسير ما يريدون تفسيره من ألفاظ ، وأقامت تحديدها للمواقع على ذكر الأماكن المجاورة وأبعادها عنها بالمراحل والأيام ثم الأميال والبرد .

واختلفت بعد ذلك . فكان الأصمعي (في جزيرة العرب) والبكري والإسكندري وعرام والسكوني وياقوت أقرب من غيرهم إلى الدقة في تحديد المواضع التي يتحدثون عنها ، وكان أكثرهم دقة عرام والإسكندري وياقوت . وأتت الدقة إلى عرام والسكوني من وصفهم رحلات يقوم بها المسافر ، وما يمر به من مواضع على التوالي . أما الدقة فتمتد

(١) السخاوي : الضوء اللامع ١٠ / ٨٢ . الشوكاني : البدر الطالع ٢ / ٢٨٢ . السيوطي :

عند ياقوت على معلوماته الجغرافية البحتة ، حتى كان يحدد المواقع بخطوط الطول والعرض .
وتوسع البكري وياقوت في الشواهد التي استخلصوا منها أما كتبهم . فاعتمد البكري
على الأحاديث النبوية والأخبار العربية إلى جانب الشعر . واعتمد ياقوت على ذلك كله ،
وأضاف إليه كثيراً من الكتب التاريخية والجغرافية وغيرها .

وكانت الجزيرة العربية وما تاخها من أقطار عربية هي موضع دراسة المؤلفين الأولين .
ولم يشذ عنهم غير الجاحظ الذي تناول بلاداً غير عربية . وبقي الأمر كذلك حتى القرن
السادس ، فوسع المؤلفون مجالهم وتناولوا المدن الإسلامية الأخرى ، ثم توسع ياقوت إلى
بقية أنحاء العالم القديم .

واختلفوا في ترتيب الكتب . فسار الأولون كما كانوا يسرون في الرسائل اللغوية
الصغيرة ذات الموضوعات الواحدة ، مثل كتب الإبل ، والخيول ، وغيرها . فلم يرتب بعضهم
كتابه ، مثل الأصمعي في داراته . ولكنه رتب جزيرة العرب وفقاً للأقاليم والقبائل التي
تتلها ، وقسم عرام كتابه قسمين : واحداً لتهامة ، والآخر للحجاز ، واتبع في الوصف
ما يمر به المسافر بين المدينة ومكة من أماكن على التوالي . ثم ابتداء الترتيب الألفبائي قاصراً
على حرفين في المغرب العربي عند أبي عبيد البكري ، وعلى حرف واحد في المشرق عند
الزنجشري ، ثم على حرفين عند العمراني ، إلى أن بلغ كماله عند ياقوت الذي راعى حروف
الكلمة كلها : أصلية كانت أو مزيدة .

واتفق البكري وياقوت على ضبط الأسماء بالعبارة ، وإبانة حقيقة حروفها والحركات
عليها ، والإشارة إلى اشتقاقها ، خشية أن يلحقها التحريف ، الذي كان السبب الذي دفعهما
إلى تأليف معجميهما .

ثم اتجه كل منهم اتجاهاً خاصاً في المواد التي عني بها في كتابه . فاهتم ابن الكلبي بتفسير
أسماء البلاد وتعليلها ، وإيراد الخرافات المتصلة بذلك . وعنى أبو نصر الإسكندري ، وأبو
موسى الأصفهاني ، وأبو بكر الحازمي بذكر العلماء المنسوين إلى المواضع التي يعالجونها .

أما ياقوت فضم كل هذه الألوان - إذ أدخل هذه الكتب في معجمه - وأضاف إليها الأخبار التاريخية الكثيرة .

كل هذا جعل من معجم البلدان لياقوت القمى التي وصل إليها هذا اللون من التأليف والكتاب الذي يجمع كل اتجاهاته ، ويمثل كل الألوان ، ويضيف إليها ما أدخله من اتجاهات تاريخية وجغرافية . فقد مزج صاحبه فيه جميع ألوان الثقافة الإسلامية المتصلة به .

وقد تنبه أصحاب المعاجم اللغوية إلى هذا النهر منذ المعجم الأول . فأخذ الخليل بن أحمد في عينه منه بحظ يسير ، تعدى به شبه الجزيرة العربية إلى غيرها . ثم عَبَّ منه ابن دريد في جهرته ووسَّع الصغاني في عبابه مجاله . ثم حوَّله الفيروزآبادي وضمه إلى الأنهار الأخرى التي صبها في قاموسه المحيط ، ثم شارحه السيد مرتضى الزبيدي . وتقوم الدعوة الآن إلى نفي هذا النهر عن محيط المعاجم ، إذ تعتبره دخيلاً على المجال اللغوي البحت . وأفاد أصحاب هذه الكتب بدورهم من المعاجم . فاستقى أبو عبيد البكري كثيراً من رسومه من جهرة ابن دريد . وأكثر ياقوت من الرجوع إليه وإلى الأزهري والجوهري وغيرهم . فتبادل كل من الفريقين التأثر والتأثير .

المراجع

- الأصمعي: الدارات، المطبعة الكاثوليكية في بيروت، (في كتاب البلغة في أصول اللغة).
- ابن الأنباري: زهرة الألباء في طبقات الأدباء، مطبعة المعارف في بغداد ١٩٥٩.
- البيكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة.
- الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، مطبعة الظاهر بالقاهرة ١٩٠٨.
- حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طبع تركيا ١٩٤٣.
- ابن حوقل النصيبي: صورة الأرض، الطبعة الثانية، لندن ١٩٣٩.
- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، مطبعة السعادة بمصر.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان، مكتبة النهضة المصرية.
- السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة انقدي بالقاهرة ١٣٥٥ هـ.
- السمهودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، مطبعة الآداب والمؤيد بمصر ١٣٢٦ هـ.
- السيوطي: بغية الوعاة، مطبعة السعادة بالقاهرة.
- الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٤٨ هـ.
- صالح أحمد العلي: المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز - مستل من المجلد الحادي عشر لمجلة المجمع العلمي العراقي ١٩٦٤.
- عرام: أسماء جبال تهامة، نوادر المخطوطات، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٥٥.
- القفطي: إنباه الرواة، طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة.

- كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان
هاشم ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٦٣ .
- ليل : ديوان عبيد بن الأبرص ، طبع أوروبا .
- مجلة المجمع العلمي العراقي ببغداد .
- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق .
- المرزباني : معجم الشعراء ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٠ .
- المسعودي : التنبيه والإشراف ، تحقيق روزن ، طبع أوروبا .
- : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٨ .
- المعلقات .
- المقدسي : أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم ، مطبعة بريل ١٩٠٦ .
- ابن النديم : الفهرست ، طبع ليبسك .
- الهمداني : صفة جزيرة العرب ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣ .
- ياقوت : معجم الأدباء - طبعة أحمد فريد رفاعي .
- : معجم البلدان ، طبع ليبسك ١٨٦٩ .

مصطلحات عمال الغزل والنسيج

أحال المجمع على لجنة فرعية مؤلفة من أعضائه السادة الدكتورة مصطفى جواد وإبراهيم شوكة وجميل الملائكة وصالح أحمد العلي الطلب المقدم من وزارة العمل والشؤون الاجتماعية لوضع مصطلحات لتسمية زهاء سبعين عاملاً يؤدون وظائف وأعمالاً مختلفة في الغزل والنسيج . وقد عقدت اللجنة عدة اجتماعات لهذا الغرض قدمت بعدها إلى المجمع مجموعة المصطلحات التي أوصت بها والتي أقرها المجمع بعد مناقشتها في جلسته المتقدمة في ١٤/٣/١٩٦٦ وفيما يلي قائمة بهذه المصطلحات :

Spinner	غزّال
Weaver	نسّاج
Knitter	سرّاد
Dyer	صبّاغ
Fibre Preparer	اليافي (اليافيتون)
Bale Transferer and Opener	فضائدي
Fibre Softener, Grader and Classifier	فراز
Fibre Mixer and Blender	خلائط
Rag Machine Man (Wool)	خرقي (بكسر ففتح)
Wool Fibre Scourer	مصول
Sketcher man	نسّاق

Lap Carrier	لفائمي
Fibre Picker	لقاط
Fibre Carder (Wool and Jute)	مسرّح (صوف)
Fibre Carder (cotton)	مسرّح (قطن)
Gill Box Operator	ضفائري
Fibre Comber	ممشط
Wool Silvers Dryer and Washer	راحص
Fibre Lapper	ملفان
Fibre Drawer	جرّار
Fibre Slubber and Rayer	فتّال
Jute Softener	مرّفق
Thread and Yarn Winder,	مدور
Thread and Yarn Doubler	منّام
Thread and Yarn Twister	برام
Thread and Yarn Conditioner	منبسط
Reeler	مسلل
Pressman	رصاص
Beam Warper (Beamer)	مُسدّي
Hand Loom Threader	مُسلّك
Warp Tier	عقاد
Loom Gaster	مفدّل
Hand Loom Weaver (Cloth)	نساچ
Machine Loom Weaver (Cloth)	حائك

Jacquard Loom Weaver	رامل
Lace Machine Weaver	شراطلي
Hand Loom Weaver (Carpet)	سجادي
Machine Loom Weaver (Carpet)	طائفسي
Machine Loom Weaver (net)	شبيكي
Loom Fixer	منوئل
Power-Driven Machine Knitter	حباك
Hand-Operated Machine Knitter	حباك
Knitting Machine Setter	مُحكِم
Pattern-Card Preparer	مقوياتي
Card Cutter Jacquard	مخرم
Textile Bleacher	قصار
Dyeing Solution Preparer (Yarn and Fabric)	أصبغحي
Dyer (Yarn)	صبغ (غزول)
Dyer (Fabric)	صبغ (نسج)
Dyer (Garment)	صبغ (اردية)
Textile Washer	غسالي (نسج)
Gummer	مصمغ
Textile Carbonizer	مشذب
Textile Shrinker	مقلص
Yarn Textile Fuller	ممتن
Cropper or Shearing Machine Man	جزاز

Hydro Extracting Machine Man	عصار
Drying Machine Man	مجفف
Textile Waterproofer	كنام
Fabric Calender	كواء
Fabric Decatizer	مبخّر
Fabric Folder	لفاف
Raising Machine Man	نفاش
Silk Weighter	مقبّل
Fabrics Examiner	فاحص
Fabrics Cleaner	تناس
Fabrics Repairer	رفاء
Braid Maker (Hand)	جدال
Braid Maker (Machine)	ضفّار
Crocheting-Machine Operator	وشاء